

حكايتى مع السمك

للدكتور حامد طاهر

طوال عمري وأنا أعشق السمك
وأتناوله بكل أشكاله:
المقلي والمشوى
والمطبوخ فى طاجن..
وكان من أسعد أيام طفولتى
حين أعود من المدرسة
فأجد أسرتى قد أعدت للغداء
وجبة سمك
ورغم أننا كنا أسرة كبيرة العدد
فقد كان نصيبى من هذه الوجبة
جيذا أو معقولا
ولم يكن ينزل أبدا عن ذلك!

وكان من معتقدات أُمى
— رحمة الله عليها —
أن مخ السمكة يحتوى على الفسفور
الذى ينشط الذهن
ويقوى الذاكرة
لذلك كانت تشجعنى على تناوله
لكى يساعدنى فى المذاكرة
أما أبى — يرحمه الله —

فكان يحرص دائما
على أن تكون التحلية بعد السمك
هى البلح
واذكر عبارته المضاحكة لإخوتي:
إذا أسمكتكم .. فأبلحوا!

كان هذا فى الزمن الجميل
الذى مرّ بسرعة وسلاسة
مخلّفا وراءه
بعض الذكريات
التي لا تنمحي أبدا من القلب!

ثم أعقب ذلك
زمن العمل والجهد والمسئولية
فصرت لكى أكل السمك فى البيت
لا بد أن أذهب إلى سوقه الزاهق
وأحاول اختيار المطازج منه
وأعاني خداع البائعين
سواء فى الثمن أو الوزن
ورغم تنظيفه فى السوق
أعود فأساعد زوجتى فى إعادة غسله
وقليه ، وتقديمه
ونقضى فى ذلك أكثر من ساعة
وأخيرا نجلس لتأكل
ونحن مرهقون إلى أبعد حد
وبعد الطعام
لا يكون أمامنا سوى الاسترخاء
فى نوم عميق..
تتخلله أحيانا بعض الأحلام!

وذات يوم
وهذا من غرائب القدر
تعرفت على صديق جديد
من هواة صيد السمك
بل هو أحد المحترفين
وكنت أسعد كثيرا
بالحكايات المشوقة
التي كان يجيد روايتها لى
عن صيد السمك
تارة فى أعالي النيل
وتارة فى البحر الأحمر
وكانت المفاجأة الأسعد
حين دعاني لمصاحبته
فى إحدى تلك الرحلات
ساعتها قلت لنفسى:
ما أروع أن أشاهد على الطبيعة

عملية صيد السمك
وأن أرى بعينى خروجه من الماء
وكله حيوية ومقاومة
ثم نضعه فى صندوق الثلج
ليصبح بعد ذلك غذاء طيبا لنا!

فى الملنش الخاص بصديقى
جلسنا متقابلين
وأنا لا أجد المسباحة
بل لا أعرفها أساسا
وراح هو بمهارة فائقة
يلقى فى الماء
بصنارات متفاوتة الأطوال والأحجام
ولأنه كان منهمكا جدا فى عمله
لم أحاول التحدث معه
أو أسأله عن أى شء

لم تمض فترة طويلة
حتى غمرت إحدى المصنارات
ثم أخذت تهتز بشدة
وعلى الفور نهض صديقى للتمسك بها
ويبدو أن السمكة التى التقطتها
كانت ضخمة
فراح الملنش يتمايل بشدة
وفوجئت به ينقلب
ويصبح مباشرة فوق رأسى!
سمعت صوت صديقى يصيح
طالبنا المنجدة من الشرطة البحرية
التي أسرعنا بانتشالي من الماء
وكان جوفى قد امتلأ منه
وبعد محاولة إنقاذ طويلة
أجلسونى مهنئين بالسلامة

فى طريق عودتنا إلى القاهرة
جلسنا فى السيارة صامتين تماما
ثم بدا لى أن أسأله:
— هل أمسكت بالسمكة ؟
أجاب بصوت خفيض:
— كلا.. فقد كانت من النوع المتوحش
وتمكنت من قضم الحبل
ثم قال معقبا:
— ولك أن تعلم
أن مغامرات الصيد
ليست كلها ناجحة
وهى إذا نجحت مرة
فقد تفشل مرات

نحن المحترفين

نذكرك ذلك جيداً

كدت أقول له:

— ولماذا لم تقل لي هذا من قبل؟

لكنني مجاملة له التزمت الصمت

وعزمت على عدم تكرار المحاولة

وصرت أكتفى بشراء السمك

جاهزا من المطاعم المتخصصة

وحين توضع أمامي على المائدة

سمكة كبيرة

أنظر إلى رأسها..

وأتذكرت على الفور

ما الذي كان سيحدث لي

إذا لم يسرعوا بانتشالي

وهبطت في جوف البحر

بين أنياب تلك السمكة الشرسة؟!
